المنار

١٣١٥

ينشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام سوى و « منارا » كمنار الطرق ﴾

٣٠ رجب ١٣٣٨ — ٢٩ (الحمل) (و١) ١٢٩٨هـ ش ١٩٤ ابريل ١٩٢٠

عاقبة حرب المدنية

الاوربية

كتبنا في أثناء هذه الحرب مقالات بينا فيها أسبابها وعللها وحكمة الخالق فيها وفظائعها وشرورها والمقابلة بينها وبين الحروب الاسلامية التي امتازت بالرحمة وبجعل الحرب ضرورة تقدر بقدرها وبتحريم القسوة والفظائع فيها ، والمقابلة والمقارنة بين الدول المتحاربة في الاستعداد والمزايا ، وصرحنا فيها بان عاقبتها ستكون افراد احدى الدولتين الرئيستين في الحلفين الكبيرين الجرماني والانكليزي — وهما المانية وانكلترة — بالسيادة والعظمة في العالم وفاقا لقول الفيلسوف هربرت سبنسر الشهير للاستاذ الامام : ان ضعف الفضيلة وتغلب الافكار المادية في أوربة سيدفعان دولها الى حرب عامة طامة ليعلم اليها الاقوى ليسود العالم

ومما بيناه في بعض تلك المقالات ان المانية أتقنت الاستعداد للحرب اتقانا يمكنها من محاربة أوربة كلها وانها فاقت جميع الدول في السلاح والنظام وان أعداءها يفوقونها بالكثرة التي تعد من أعظم أسباب الغلبة كما قال الشاعر العربي

ولست بالاكثر منهم حصاة ولكنني النزة الحكاك

وقد كان من أمر هذه المكاثرة ان انكلترة ألبت على المانية أكثر دول الارض في الشرق والغرب من العالمين القديم والجديد، وانما كان ذلك بعلو كعبها على الالمان وغيرهم في الدهاء السياسي الذي هو أدق علوم البشر وأصعب أعمالهم مركبا وأوعرها مسلكا، وقد قلت مرة لصاحب لي من الالمان المستشرقين كان يحاورني ويحاورني في المقارنة بين قومه وبين الانكليز وما بينهما من المناظرات: انني مقتنع بانكم فقتم الانكليز في جميع العلوم والفنون والاعمال حتى التجارة الا ما هو أهم من ذلك كله وأعظم - وهو السياسة - فانني أرى ان الانكليز يفوقونكم فيها. فقال صدقت

وقد ذكرتني هذه الكلمة التي قلتها منذ بضع سنين بكلمة في معناها قلتها منذ بضع عشرة سنة في مجلس بدار أحد أصدقائنا بمصر مات من حاضريه لطيف باشا سليم وحسن باشا عاصم وجرجي بك زيدان وبقي صاحب الدار وأحد الباشوات قال صاحب الدار في ذلك المجلس: انه يلقه أن ألمانية عقدت مع روسية محالفة سرية على انكلترة وسيترتب على هذه المحالفة اخراج الانكليز من مصر ومن الهند أيضا. فقلت له: لا تغتر بهذا الخبر فان انكلترة كانت ولا تزال تضرب بعض الامم ببعض وتكون هي الرابحة فهي كما قال مسلم بن الوليد «كالسيل لم تحذف جلمودا بجلمود»

انني لم أصدق هذا الخبر في ذلك الوقت ثم تبين في أثناء هذه الحرب مما اكتشف من أسرار القيصرية الروسية أن له أصلا وان مشروع المحالفة وضع ثم عرض ما حال دون اتمامها فان كان هذا وقع بعد ذلك الزمن الذي أخبرنا فيه ذلك المخبر به فمن الجائز أن تكون مقدماته ووسائله قد سبقته بسنين، والذي نقصده من العبرة في هذه السياسة هو أن الانكليز غلبوا ألمانية على روسية فحالفوها على الترك والفرس ثم جعلوها باتفاقهم مع حليفتها فرنسة فدية لهما في هذه الحرب، فكانت نهب نقمة ألمانية الحربية وريعان قوتها، وعنفوان أسرتها، وكذلك تعبث الامم العليمة الحكيمة بالامم الجاهلة الخرقاء فتجعلها فدية لها كما فعل الحلفاء بأمم أخرى وكما فعل الالمان بالترك

وقد كان أعجب مظاهر قدرة انكلترة السياسية تسخير دولة الولايات المتحدة الامريكية لانقاذها وانقاذ حلفائها من جحيم الالمان العسكري بعد ان عجزت أوربة كلها ومن ظاهرها من أمم آسية وأفريقية وأمريكة الجنوبية عن قل حدهم،

وايقاف طغيان مدهم ، وهي الدولة التي جعلت من قواعد سياستها ترك مشاكل العالم القديم لاهله، وعدم مشاركتهم في شيء منه ، رقتها انكلترة رقيبين استخرجت بهما حيتها من جحرها ، وزحزحتها عن قاعدة سياستها، إحداهما دعوتها الى انقاذ حرية الامم والشعوب من السيطرة الالمانية التي تهدد العالم بالاستعباد، والثانية دهاء اليهود ونفوذهم المالي في تلك البلاد، وقد وعدتهم انكلترة بان يكون جزاؤهم اعادة ملك اسرائيل الى مملكة سليمان في الارض المقدسة بالرغم من أنوف العرب اصحاب البلاد . ومن الملتين الاسلامية والنصرانية وسكت لها على هذا الوعد أشد ذوي التحمس الديني من البر وتستنت والكاثوليك حتى الجزويت منهم ، وأما المسلمون فلم يصدهم ذلك عن مساعدتها على فتح البلاد المقدسة بالجيوش التي جهزوها باسم شريف مكة سليل الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحب الحجاز بقيادة بعض ابنائه ، فهل كان باستطاعة أحد من دول الارض أن يفعل مثل هذا أو يفكر في امكانه ؟ لا ! ولكن الانكليز فعلوا ما لم يكن يخطر في بال بشر فاستردوا هذه البلاد وما حولها من المسلمين الذين غلبوا قلب الاسد ملك الانكليز وسائر ملوك أوربة في الحرب الصليبية بمساعدة الجيوش الاسلامية

طوح المستر لويد جورج وزير انكلترة الاكبر هذه الدولة بالرقيبين اللتين ذكرنا فجعلت ثروتها الكبيرة ومواردها الغزيرة وجنودها الكثيرة وقفا على انقاذ الحلفاء من المانية بل هاجمت المانية بقوة أكبر واعظم من كل هذه القوى — قوة الدعوة الى الصلح المبين على اتفاق الامم والشعوب على العدل العام والحرية الشاملة لجميع الانام ، وابطال ماجرت عليه الدول القوية في العصور الخالية من المحالفات السرية على هضم حقوق الامم المستضعفة وغير ذلك من أصول الحق والعدل التي مازال الاقوياء يهدمونها بمعاول القوة ، ومنها وجوب حرية البحار ، وجعل الانكليز وغيرهم فيها سواء، قام الدكتور ولسن رئيس جمهورية الولايات يحارب المانية بهذه القوة الادبية الممزقة لتلك القوى الحربية والمالية ، ففاه بتلك الخطب الطنانة الرنانة ، ووضع للصلح تلك القواعد الجذابة الخلابة ، ففعلت في زمر الاشتراكيين والعمال الالمانيين فعل السحر، ولا سيما قاعدة حرية البحار في زمني الحرب والسلم ، فخرجوا على حكومتهم السياسية ، وثاروا في وجه قوتهم العسكرية

وهي في أوج انتصارها ، وزرقة فخارها ، : أمرت أسطولها بأن يهاجم الاسطول البريطاني فاعتصب بحارته وأبو الامثال ، وهدد زعماء الاشتراكيين قواد الحرب باغتصاب جميع العمال ، أو يطالبوا عقد الصلح على قواعد الرئيس ، ولسن ، العادلة إذ هي أفضل من نصر عسكري يؤرث الاحقاد ويورث السياسة الجائرة ، وانما أمست جمياتهم وتحزبت احزابهم لمقاومتها ، وقد سنحت لهم الفرصة فقالوا لانضيعها ، ولم يفتهم القول بأن هذا خداع ، لان الامريكيين غير مهيئين بالكيد ولا بالاطماع ، فاستمهلتهم الحكومة ريثما تسحب جيوشها وكراعها وذخائرها من قلب فرنسة فامهلوها ، وكان ما كان من امر طلب الهدنة واشتراط الحلفاء فيها اضعاف جميع قوى الالمان الحربية في البر والبحر والجو حتى لا يستطيعوا العود . فمن المنتصر ؟ : أمريكة في الظاهر وانكلترة في الباطن ، بل المنتصر انما هم رجال السياسة الانكليزية وحدهم ، فهم الذين اقنعوا الولايات المتحدة بوجوب مؤازرة القضية المشتركة فسقطت على يدها الثانية وساعدهم على ذلك سلف الالمان وغرورهم واحتقارهم الولايات المتحدة . وهم الذين والوا شريف مكة فكان عاملا قويا لسقوط الترك ، وهم المتصدرون لادارة دفة سياسة العالم بعد التمهيد لها واقتحام مايقوم امام هذه الادارة من العقبات . ومن ذلك اقناع الولايات المتحدة باسم خدمة الانسانية وتأييد المدنية بالاشراف على تركيبة ، والنهوض بالجمهورية الارمنية . ويتولون هم ادارة البلاد العربية من برقة الى العراق فمان ماخلا سورية الشمالية فان ادارتها جعلت لفرنسة تنفيذاً لمعاهدة سايكس ريكو من جهة وحتى لا تؤوب فرنسة بصفقة المغبون وترضى من الغنيمة بالاياب من جهة أخرى . . . — والبلاد الفارسية المتصلة بلوجستان فالهند فالتبت الانكليز يحتلون سورية الجنوبية (فلسطين) ويعملون فيها عمل الحاكم المطلق ويمهدون السبيل لمهاجرة الصهيونيين اليها ليكونوا حكاما فيها تحت حمايتهم ويحتلون العراق ويعملون فيه عمل المالك بلا معارض وقد أسسوا للسواحل العربية الحجازية واليمنية محافظة سموها [محافظة البحر الاحمر] وأرسلوا بعثة الى الامام يحيى — ولكنها أسرت قبل الوصول اليه — وأرسلوا بعثة أخرى الى السيد الادريسي

الاتفاق معه. وعقدوا اتفاقاً معه حكومة ايران نشر في الجرائد فشكت منه الصحافيون ورجال السياسة واحتجوا بانه مخالف لعهد « عصبة الامم » اذا كانت المسألة السورية معلقة بانواط تلك الوسائل المشار اليها ، كما تحدث أولئك الرجال وتلك الجرائد بالمسألة المصرية وبما للمصريين من الحق في المطالبة باستقلالهم وحريتهم ولم تفتر تلك الشقشقة حتى تم الاتفاق على العود الى تنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦

وقد ظهر رجحان السياسة الانكليزية على السياسة الفرنسية في البلاد التي كانت تظن فرنسة أن سياستها فيها أرجح لما لها فيها من الصنائع والوسائل . فقد كان طلاب المساعدة الامريكية فالانجليزية من اهالي البلاد اضعاف طلاب المساعدة الفرنسية ، فلم يبق لفرنسة بد من اللجإ الى ارضاء انكلترة والرضا منها بتنفيذ معاهدة سنة ١٩١٦ بمقابلة تصرفها المطلق في مصر وسائر بلاد العرب والعجم

يجري كل ماذكر على طريقة السياسة الاوربية المعروفة المألوفة من تصرف الاقوياء في الضعفاء والعلماء في الجهلاء ، بعد ان ذهبت جعجعة خطب الرئيس « ولسون » في الهواء وهو ماكنا نتوقعه من وراء هذا النصر ، ونحدث به من كلمناه في عواقب الحرب ، وخاصة اخواننا العرب المغرورين من السوريين والعراقيين ، ولا غرابة في غرور اطفال الاحرار في مهد السياسة والحركة العربية الحجازية في بدء ظهورها تكبرها في أعينهم بعض الجرائد.

فان قال قائل : أن كتاب الله قد أثبت أن العاقبة للمتقين ، وقد فسر علماؤنا التقوى بانها عبارة عن اداء المأمورات وترك المنهيات ، فهل كان الانكليز — بهذا المعنى — هم المتقون ، حتى كانت عاقبة هذه الحرب لهم بنفوذ الكلمة وعلو المنزلة والتصرف في أرض الله الواسعة ؟ نقول : ان قول الله تعالى لاريب فيه ، وان كلام العلماء في تفسير التقوى صحيح ولكنه مجمل فمن فهم منه ان المراد بفعل المأمورات الوضوء والصلاة والصيام ولو على غير الوجه الذي شرعه الله تعالى وان ترك المنهيات خاص بترك الخمر والزنا والسرقة وما أشبه ذلك — فهو قصير النظر ضعيف الفهم ، التقوى أعم من ذلك وهي تختلف باختلاف ماتطلب فيه كما بيناه في مواضع من تفسير المنار ونبهنا أهل العصر الى تقصير المفسرين وغيرهم من علمائنا في بيان مافي الكتاب والسنة من الاصول الاجتماعية ومسائل السياسة والعمران

فالتقوى المكررة في قوله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا) الآية غير التقوى في مباشرة النساء المكررة في سورة الطلاق ، وغير التقوى في قوله تعالى (وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي اليه تحشرون) فلكل مقام خصوصية هي المقصود الاول من المعنى العام ، والتقوى في قوله تعالى (ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) غير ماذكر كله ، فالاولى والثانية في أحكام الطعام والصيد وهما من الاحكام الشخصية الفردية ، والثالثة في أحكام الزوجية وهي منزلية (أو عائلية) والرابعة في شؤون الامم والعمران وهي مايعبر عنه في عرف هذا العصر بالاجتماعية وكلامنا فيها . والثابت عندنا ان الانكليز أشد الاقوام عناية باتقاء الحمية والفشل في هذه الامور ، والالمان كذلك الا أن الالمان فاقوا الانكليز بالتقوى الحربية فلم يدعوا شيئا من أسباب اتقاء الانكسار فيها الا وأحكموه ، ولذلك كانت العاقبة لهم في المعارك الحربية ، ولكنهم لم يتقنوا كالانكليز اتقاء التنازع الداخلي فوقعت الثورة الاشتراكية في أمتهم ، وصدق عليهم قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) ولم يتقنوا كالانكليز اتقاء سخط الامم والشعوب عليهم فأسخطوا الامة الامريكية على حين صارت أعظم الامم ثروة واشتدت حاجة جميع الامم اليها ، فكان ذلك عونا للانكليز على تسخيرها لهم، ولم يتقوا خروج العرب على الترك باستمالة العرب وتوثيق الرابطة بينهم وبين الترك وتحذيرهم من خطر انتصار الانكليز عليهم بل سمحوا لاوليائهم سفهاء الاحلام من زعماء (جمعية الاتحاد والترقي) — الدم والذهب — بارهاق العرب والتنكيل بهم تقتيلا وتصليبا وتذليلا وتفريبا ومصادرة وتعذيبا وهتكا للاعراض وافساداً للاخلاق ، على حين كان الانكليز يجدون في استمالة كل أمير وزعيم منهم بما يروج عنده من ضروب الاستمالة فمال اليهم بعض دون بعض وكان فيمن مال وشايعهم مشايعة فعلية أو سلبية الامير عبد العزيز بن سعود صاحب نجد وبعض شيوخ عرب العراق، وموالاهم شريف مكة (الملك حسين) وساعدهم على محاربة الترك بجيش مؤلف من بدو الحجاز وحضر سورية والعراق بقيادة أبرع أبنائه في الغزو والقتال الامير فيصل (ملك سورية)

وقد اعترفوا له ببلائه وإخلاصه في اعانتهم على فتح القدس الشريف وعلى إيقاع الفشل والخذلان في جيش الترك المدافع عن سورية حتى انهزم وتركها غنيمة باردة لهم، وصرحت جريدة التيمس الشهيرة بأن الامير فيصلا بذل حسامه في نصر الحلفاء من غير أن يحصل على أي وعد منهم بشيء ولكنه أعطي بعض الوعود بعد ما أخذ في النجاح، وقالت أن الامير فيصلا كان يرغب في الاستقلال التام للحجاز وحده وأما لسائر الشعوب العربية فانه يرغب لها في الاستقلال عن الترك فقط وأن تطلب كل البلاد العربية وصاية دولة واحدة عليها وتعني دولتها انكلترة (اه ملخصا من عددها الاسبوعي المؤرخ في ١٤ فبراير سنة ١٩١٩) بل كانت موالاة الشريف أكبر مما ذكر في فوائدها السلبية والمعنوية ولا محل لشرح ذلك هنا ، ولو كان للالمان مثل دهائهم لسبقوهم الى استمالة العرب وكانوا على ذلك أقدر ، وإذاً لاستطاعوا أن يجندوا منهم خمسمائة ألف أو ألف ألف جندي ولا أبالغ أذا زدت على ذلك ولا سيما اذا شملت هذه الاستمالة اليمن وعسير ، ووصلوا الى شواطئ البحر الاحمر وبحر العرب ولم يكن ذلك عليهم بعسير

فان قال ذلك القائل : فهنا معنى القوى في السياسة والحرب ومعنى كونها من سنن الله تعالى في الخلق ، ولكن خفي علينا ما بينت في تلك المقالات من أن هذه الحرب انتقام إلهي عدل من الدول والشعوب الظالمة لنفسها والظالمة لغيرها الباغية على عباد الله التي لم تشكر نعمه تعالى باستعمالها فيما يرضيه من اقامة الحق والعدل ، وانا نرى ألوف الالوف من البشر تئن من سلطة تلك الدول وحكمها واذا كانت معصية صادقه في شكواها — لانها مهضومة الحقوق بضعفها — فلما ذا كانت عاقبة الحرب استمرار عقاب الله لها بالاستذلال والحرمان من الاستقلال ، ورفع العقاب عن اولئك الباغين ، وتحكيمهم في بلاد قوم آخرين ؟

إن قال ذلك القائل هذا القول وأورد علينا هذا الاشكال فانا نجيبه بأن مايراه هو مشكلا لا نراه نحن كذلك ، فانا نرى أن الامم المستضعفة الظالمة لنفسها المظلومة من قبل الاقوياء المسلطين عليها بما كان من قهر بطها ، لم يحصها ماحل بها ويرجعها الى رشدها ، وأن الدول الباغية الظالمة قد ذاقت من الشدائد

التي تعامل المستضعفين بها ، ولم تتب وترجع الى ربها ، وكذلك شأن الدول والامم التي غلبت بهذه الحرب على أمرها ، فالعقاب الالهي لكل أمة ودولة لم ينته بهذه الحرب ، ولا هي انتهت بما وضع من معاهدة الصلح مع بعض المتقاتلين دون بعض

وما ذكرنا من فوز بعضهم وهلو كلمة بما بيناه من سببه، لادليل على ثباته ودوامه. واذا طال العهد عليه بحثنا عما اقتضى ذلك من أسبابه وسنن الاجتماع فيه، واننا نرى هذا الفوز والفلاح يكاد يجر وراءه أسباب خسار وخذلان؛ أهمها خسران الانكليز ذلك الصيت الحسن ، الذي غرسوا فسيله ، وزرعوا بزوره ، وتعاهدوا زرعه بما ينميه عدة أجيال ، حتى كانت الشعوب المتململة من سليهم استقلالها تفضلهم على غيرهم ، والشعوب المتألمة في غيرهم تتمنى لو تتقيأ ظل حكمهم ، ولكن لا يزال في الشعب الانكليزي ذي العرق الراسخ في مكارم الاخلاق ، وبعد الروية وطول الاناة ، وحب العدل والانصاف رجال يرجى أن يرجحوا القوة المعنوية، على القوة المادية ، ويراعوا الانقلاب الاجتماعي الجديد الذي أحدثت هذه الحرب قواه التي جمعت في عهد بعيد، كما تتفجر البراكين من الارض بآخر قطعة أو دفعة من الفازات الموادة للضغط فاذا اقدر هؤلاء الرجال على مقاومة الاطماع الاستعمارية. وضعوا لدولتهم سياسة جديدة تتفق مع مصالح مصر والهند والعرب والفرس وسائر الشعوب يبقائها على مراعاة ما أشرنا اليه من الانقلاب الاجتماعي الاكبر. اذا قدر هؤلاء الفضلاء العقلاء على ما ذكرنا، وتركوا لهذه الشعوب استقلالها في ادارة بلادها وسياستها وحالفوها على ان يكونوا هم المقدمون على جميع أممهم المدنية في مساعدتها العلمية والفنية التي تقرر استقلالها وتعمر بلادها ، ورضوا من المكافأة على ذلك بالمنافع الاقتصادية والأدبية ، التي تكون بالتراضي لا بالقوة الاحتلالية ، فانهم يؤسسون لشعبهم الكسوني المجيد ، مجدا طريفا الى مجده التليد، بحيث يرجى ان يكون خالدا لا يبلى ولا يبيد ، ما لم يرجع عن هذه الطريقة أو يحيد، وحينئذ تكون لهم العاقبة الثابة ، ويسترجع أضعاف ما فقد من ثروته المالكة ، من غير نفقات كبيرة ، كالنفقات التي لا يزال يتكبدها باحتلال البلاد المغلوبة ، ويكون سببا لاصلاح الكون ، وعمران الارض ...

أكتب هذا بإملاء العقيدة الثابتة ، المؤيدة بالدلائل الاجتماعية الناهضة ، لا بباعث الاغراض القومية ، أو قصد الايهامات السياسية ، تاركا تصديقه للزمان ، وتفسيره لحوادث الأيام ، وسنن الله في الأنام ، لا مبدل لسنته ولا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته